فقط أنا

في اليوم التالي وقُبيل الظهر بقليل ولجت عجوز ذات حسٍّ راقٍ بصحبة عائلتها .. ما إن رأته – منديلي الذي كان متنعِّمًا فوق رفٍّ رخاميٍّ منحوتٍ مُحاط بالقطع الثمينة التي تجتذب الأنظار – حتى أحبَّته .. أومأ حبيبها المسن برأسه برضا قائلا: خذيه إن كنت تريدينه ..

ــ لا .. لا أريده .. يبدو من شكله إنه غالٍ ..

ــ لا بأس .. أستطيع شراءه ..

ــ لا تكن عنيدًا .. هيا لنبحث عن شيء آخر ..

ــ وعند الكاشير تفاجأت لمّا قدَّمه لها البائع كهدية، فلّما سألته أجابها بأنّه إهداء من المحل لأول شخص يلج .. شكرته ثمّ التفتت إلى زوجها .. ابتسمت له: هل تصدِّق ما جرى .. يبدو أنّ ذاك المنديل يحبني ..

ــ ومن لا يستطع ..

ــ إلى اللقاء ..

ــ آه .. إلى اللقاء سيدتي ..

لاحظت الجدة نظرات الاستغراب التي طغت على ملامح البائع أثناء رحيلهم فسألت حفيدَيْها .. أجابت طفلة في الخامسة أن أخاها الذي

يصغرها بسنة قد التهم طعام القطة كاملا ولم يترك لصغارها شيئا .. وبَّخته ثم عادت فاعتذرت من البائع وأرغمت حفيدها العنيد على الاعتذار أيضا وقبل أن تغادر منحته تعويضًا تمسح به آثار تلك النظرات التي تفاقمت لمّا أخبرته فهي لم تكن على علم بتلك الحادثة ..

لقد كانت أمسية ممتعة عاد الكل منها تعبًا، أمّا الجد فقد صعد إلى غرفته لحقت به الجدة بعد أن وضعت كلا صغيريْها في السرير .. لحقت به لتجده نائمًا على غير عادته .. لقد غفا سريعًا و هو الذي كان ينتظرها دائمًا .. لقد التمست له أسبابًا فغفرت له ..

وفي الصباح الباكر استيقظت، لم توقظه بل توجَّهت إلى حفيدَيْها فقد حان موعد الذهاب إلى المدرسة .. تركتهما وهبطت الدرجات نحو المطبخ لتعدّ لهما طعام الإفطار .. تفاجأت لمّا وجدته جالسًا على غير عادته فهو لا يتناول الإفطار إلا نادرًا وإن فعل فمتأخرًا ..

ــ لِمَ لمْ تلقيا التحية على جدَّيْكما؟

ــ الجد باسم ينتظر منهما إجابة: سألقي عليه التحية لاحقًا .. أما العنيد الصغير فلم يُجب ..

ــ حسنا .. هو غاضب منذ البارحة أمّا أنت فلم غضبك؟

ــ جدتي .. لست غاضبة ولأثبت لك ذلك سوف ألقي عليه التحية الآن .. وحالا صعدت إلى غرفة جدِّها ثم عادت: لقد فعلت .. وصل باص المدرسة فانطلقوا إليه مسرعين ..

ــ لماذا صعدت هذه الطفلة وعادت تقول أنها ألقت التحية عليك وأنت أمامها ..

ــ لماذا تحب حفيدتك شراء كل شيء غريب، ولماذا يحب أخوها التهامه؟

ــ لأنهما غريبان ..

ــ ويزدادان غرابة .. تعالي عزيزتي واجلسي بقربي ولنتناول الإفطار معًا .. من الآن فصاعدًا لن أتخلَّف عن تناول الطعام بصحبتك يومًا ..

افترق الاثنان .. هو إلى مرآبه لينهي بعض الأعمال العالقة أما هي فقد بدأت كما اعتادت يوميا حمل مهام هذا المنزل المتواضع على عاتقها .. من تنظيف وترتيب وتلميع حتى إذا ما انتهت اختلست النظر إلى زوجها الذي كان يعمل بجد، تركته وإلى المطبخ توجَّهت .. كانت هناك منهمكة تُعدُّ الغداء وتحاول الانتهاء قبل عودتهم من المدرسة، حينما أحسَّت به يعانقها من الخلف ويقبِّلها على وجنتها: مالذي تعدينه اليوم؟

ــ آه لقد فاجأتني .. ليس من عادتك فِعل ذلك ..

ــ بلهجة لطيفة: هل أتوقف؟ هل يزعجك ذلك؟ أخبريني ولن أعيد الكرة ..

ــ حاول الابتعاد فشدَّت على ساعديه: غداء اليوم هو دجاج بالليمون .. سلطة خضراء وكحساء فقد اخترت البروكلي مع بعض الإضافات ..

ــ ولكنك لا تطيقين البروكلي .. وأعلم أنك ترغمين نفسك على تناوله لأجلي ..

ــ كيف علمت؟

ــ لست جاهلا، ولكني أدَّعي الجهل في بعض الأحيان ..

ــ وأنا التي كنت أظن بأني ممثلة بارعة .. يبدو أني قد فشِلت ..

ــ اصنعي حساء الفاصولياء لهذا اليوم ..

ــ ولكنك ..

ــ ولكني ماذا .. ألا أستطيع أن أفعل لأجلك ما تستطيعين فِعله لأجلي .. قال تلك الكلمات وهو يتأمل احمرار وجنتيها ونظرات الفتاة التي عَشِقَتْهُ أوَّل ما رأته .. لم يستطع شبح العمر بخطوطه الدقيقة باندفاعه المُتخايل أن يحجب ذلك البريق أو أن يقف في وجه روح الشباب التي عادت فاكتسحتها .. تشعر الآن وهي بين يديه أنها تلك الصبية الخجلة التي تقدَّم لخطبتها جندي عاد للتوِّ من الحرب وقد تقلَّد العديد من الأوسمة ..

علمت أن رجلا مثله سيمنحها الاحترام ستعيش في ظلِّه بأمان .. إلا أنَّ رجلا مثله لن يتمكّن يومًا من تسلُّق شجرتها كي يقطف أحلامها .. من الصعب عليه جدًّا أن يتحوَّل من عسكري يلقي الأوامر إلى مغرم ينثر حولها مشاعره متى أمرت .. بمجرد إحساسه بذلك .. ومع هذا فهي لم تستطع الرفض .. لم تستطع قول لا .. ها هي الآن تقف مذهولة أمام تلك الكلمات وهو يدنو منها ليطبع قبلة دافئة قريبًا من شفتيها وما كاد حتى طرق الباب أحدهم .. تركها لتفتحه .. لقد كان أحد زبائنه يسأل عنه .. عادت إليه فلم تجده: بماذا أستطيع خدمتك؟

ــ لقد أوصيته على كرسي هزاز، وقد طلب مني العودة بعد أسبوع .. فهل انتهى منه ..

ــ آه .. إذن هو أنت صاحب الكرسي الهزاز .. نعم لقد انتهى منه منذ قليل .. إنه في المرآب .. الحق بي .. وهناك تفاجأت .. إذ لم تجده مُكتملا .. كيف وقد رأت بأم عينيها ذلك .. جعلت تناديه .. بحثت طويلا دونما فائدة .. اعتذرت من السائل وطلبت منه العودة بعد أيام .. استكملت بحثها لتجده جالسًا أمام التلفاز المفتوح على غير عادته مُنهمكًا كالعادة يقرأ الجرائد .. لم تشأ إزعاجه آثرت تركه على أن تسأله لاحقا ..

كان الغداء قد تأجَّل حتى موعد عودة الصغيرين من نشاطهم المدرسي الذي عرقلهم عن المجيء باكرًا .. أُعدَّت المائدة وجلس الجميع .. تناول الجد طعامه ثمَّ غادر نحو غرفة الجلوس .. أخذ الصغيران يثرثران ويتطلان هربًا من تناول الحساء فشجَّعتهم أن يفعلوا كما فعل جدُّهم فقد أنهى طبقه كاملا .. استغربت لمّا وجدت الحساء على حاله لم ينقص منه شيء هذا ما أشار إليه أحدهم .. كانت الساعة قد اقتربت من السادسة حينما أتت إليه تسأله:

عزيزي .. هل تناولت الحساء .. أم أني متوهمة؟

ــ تناول يدها قائلا: دعيكِ من الحساء وتعالي هنا .. وبلطف جذبها إليه.. جعلها تستدير حول الأريكة ثمَّ أرخاها في حضنه مُردفًا بعد صمتٍ للحظات افترش لحديثهما أرضًا جديدة:

- ماذا تفعل؟

ــ أفعل ما كان يجب عليَّ فعله منذ مدة طويلة .. أن أعاملك كما تحبين .. ألا أتجاهل مشاعرك وأحاسيسك بعد الآن ..

ــ ولكني أحببتك كما أنت ..

ــ لقد كنت آلة عسكرية تلقي الأوامر وقودها الطاعة والانصياع .. عَلِمْتُ بأنَّك لست كذلك ومع هذا تجاهلتك .. ولكن ليس بعد الآن .. أريدك أن تحبيني أكثر .. أن أكون كما تحبين ..

ــ لا أعلم ماذا أقول ..

ــ أجاب مُداعبًا خصلات شعرها البيضاء: لا شيء .. دعي كُلَّ الحديث لي فلدي الكثير لأقول ..

استيقظت قبيل التاسعة لتجده واقفا أمام الشرفة وقد بدا وكأَّن ضوء الشمس اخترقه .. نادته باسمه فالتفت إليها .. خطا نحوها بنظراته تلك التي جعلتها ترتبك، سألته: لِمَ لم توقظني؟

ــ انحنى ناحيتها وجيوبه تكتنف راحتيه أجاب: لماذا .. ألا يحق لك بيوم إجازة؟

ــ هل هو الخميس؟

ــ باسما وهو ينظر إلى نحرها المكشوف: نعم .. سرعان ما تداركت أمرها فاعتدلت جالسة تستر ما كان للتَّو قد كُشف منها: لم فعلتِ ذلك؟ ألستُ زوجكِ؟ ألا يحق لي رؤية شيء من مفاتنك؟

ــ مستغربة: ولكنك لا تحب رؤيتي هكذا ..

ــ وماذا عنكِ .. ماذا تحبين؟

ــ لا بأس فأنا أحب ما يُرضيك ..

ــ تلك لم تكن إجابة على سؤالي الذي سألت .. ماذا عنكِ .. ماذا تحبين؟

ــ .....

ــ هيا .. لا تخجلي وأجيبيني ..

ــ كُنت أحب ..

ــ امم ..

ــ كُنت أحبُّ .. عندما نكون معًا .. أن أكون أقلَّ احتشامًا .. أن أُظهر لك شيئًا من مفاتني .. فأغريك .. فتُقبلَ عَلَيْ، وأجعل لسانك ينطق بكلمات لطالما رغِبت بسماعها .. ولكنَّ ذاك كان في الماضي وقد ولّى زمان وأتى آخر لا حاجة لنا فيه للادعاء .. نهضت ثم ابتعدت عنه متكدِّرة وبخاطر مكسور

ــ لا تكوني شقية .. توقفت .. استدارت وإذْ به يدنو منها: ولِمَ عليك الادعاء وهو يعيد فتح الأزرار التي زُمَّت: لو أنَّكِ نظرت جيدًا في عيْنيْ .. مُسدلا شعرها الذي تراخى جزءٌ منه على وجهها الذي أزهر: لوجدت أنَّك لازلت كما كُنتِ تلك الفتاة التي عَرفت مذ أربعين سنة .. لم تتغير، بل ازدادت جمالا .. ثمَّ كانت .. تلك لحظة شهدتها ..

أشعة الشمس التي اخترقت ..

وأركان الغرفة التي تباعدت ..

ودقات الساعة التي تراجعت ..

نحو تلك البقعة حيث كانا يقفان معًا ..

عاد ذاك الأريج بينما ظلَّ زمانٌ معطَّلٌ ينتظر تلك اللحظة أن تنتهي ..

هي لحظة جاشت معها المشاعر ..

ما كان لها أن تنتهي لولا ..

صراخٌ جعلها تنحسر ..

شقيَّان يجولان .. يعمّان المنزل فسادا ..

لشيء تافه كالعادة ..

افترقا .. حتى إذا استتب الوضع رنَّ جرس الباب .. تفاجأت عندما حاولت تعديل نفسها أنَّ شعرها لم ينسدل وأنَّ نحرها لم ينكشف .. أسئلة لم تجد مداها في مساحة الوقت الذي لم يكن مَهيَّأً للبحث عن إجابات لها، فالجرس لم يصمت بل ظلَّ في إلحاح حتى فُتح الباب:

أين أخي؟

ــ ماذا تفعل هنا؟ ألم أخبرك بالأمس أن تنتظر قليلا، فهو لا يزال غاضبا منك ..

ــ يا امرأة لقد تشاجرنا لسبب تافه لا يحتاج منه كُلَّ هذا الغضب .. إنه حتى لا يجيب على رسائلي ولا يرد على اتصالاتي ..

ــ أعلم أن تلك ليست عادته .. حتى أنا أشعر بأنه بات غريبًا هذه الأيام .. أم هي أنا .. لا أعلم .. ولكن أمهله بعض الوقت ..

ــ ماذا؟

ــ هدئ من روعك .. إلا أنّه دفع الباب ودخل باحثًا عنه، سأل الصغير الذي لحق به فأخبره .. توجَّه إلى غرفته ليجده نائما .. وقف عند الباب .. التقطت الجدة أنفاسها قالت: ما بك ..

ــ إنه نائم ..

ــ في مثل هذا الوقت .. لقد تغيَّر كثيرًا هذا الرجل؟

ــ سأوقظه ..

ــ تعلم بأنه سيغضب .. انتظر أو لا تفعل ..

ــ والصغير يستمع إليهما بإنصات حتى تحدَّث برجاء: عمي أرجوك .. أيقظ جدي .. أريده في مسألة خاصة ..

ــ ولم لا توقظه أنت ..

ــ إني أحاول ذلك منذ يومين ولكن دون فائدة ..

ــ منذ يومين ثم اقترب منه ..أيقظه .. تفحَّصه .. التفت إليها: إنه ميت ..

ــ شخصت عيناها واختلج نابضها: لا أصدق .. لقد كنّا معًا منذ قليل ..

ــ هزَّ كيانها بالحقيقة المُرة التي أيقظتها من سباتها القصير .. صرخ في وجهها بدموعه التي لم تُطفىء أنين كلماته: استيقظي .. هو ميت منذ يومين وأنت تقولين أنكما كنتما معًا منذ قليل .. إما أن تكوني متوهمة أو أنَّك مجنونة .. ولكن في كلا الحالتين سوف أعود لإخراجه من هذا السجن، فحذار أن تأخذيه بعيدًا وإلا ..

ــ غادر هُوَ، بينما ظلَّت هِيَ واقفة واجمة تتذكّر كلَّ ما كان بالأمس القريب ..

نظرات البائع .. أوقات نومه التي تغيَّرت .. طباعه التي لم تكن في الأصل موجودة .. طعامه الذي لم يُمس وتلك اللحظات التي لم يكن حاضرًا في أيٍّ منها ..

وأخيرا .. ذلك الصباح حينما استيقظت لتجد أن الحياة قد غادرته وفي تلك اللحظة بالذات ..

سمحت للوهم أن يتغلغل ..

وللحقيقة المُرة أن تنجرف بعيدًا ..

الإجابات الغائبة قد وجدت لها مكانًا مُريحا بجانب الأسئلة التي لطالما تقاذفت ..

والقطرات النديَّة حُبست طويلا، هاهي تبدأ في الهطول ومن حيث النقطة حيث توقَّفت، وما كادت حتى شدَّها صوت من خلفها: عزيزتي .. ماذا بك؟

ــ لم تلتفت إليه وخاطبته بجدية تُرغم نفسها على وضع نهاية للحُلم الذي بات مستحيلا:

توقَّف .. ارحل ..

ــ ولكن لِمَ ترغبين في رحيلي؟

ــ .....

ــ أجيبيني لِمَ؟

ــ لأني ..... أريدك أن ترحل .. أن ترقد بسلام .. أن أبكي عليك كما ينبغي ..

ــ أمسك يدها: انظري إليْ .. انظري إليْ .. وبرجاء مُشْفِق: ولكني لا أريد أن أرحل .. أريد أن أبقى هكذا .. الرجل الذي لطالما حلمت به .. أرجوك لا تسأليني الرحيل فأنا أخشى إن رحلت ألا أراكِ مُجدَّدًا ..

ــ ألا ترى .. أنا فقط من تراك .. من تسمعك .. من تشعر بك .. أحب ذلك وأحب الرجل الذي أنت، ولكن ذلك يعني بأني سأتوه .. أنا بالفعل تائهة .. لا تفعل بي ذلك .. فلن أستطيع تحمُّل المزيد .. ثمَّ أجهشت بالبكاء ..

ــ ناداها .. فرجَته أن يرحل .. هنا تركها تبكي قليلا ثمَّ ضمَّها إليه قائلا: أتعديني إن رحلت بأني سأبقى حيًّا في ذاكرتك .. وبأن الوقت لن يسلبني منك؟

ــ فهزَّت رأسها ..

ــ حسنًا إذن وبابتسامة حلوة: الوداع ..

فلمّا اختفى .. شعرت بالخوف .. فجعلت تتلفَّت يمنة وشمالا .. تبحث عنه .. ولكنها لم تجده .. بل وجدت مكانه ..جثة هامدة تفوح منها رائحة الموت .. أرهقها ما رأت .. جهد الأيام هاهو يحطُّ ثقيلا فوق كاهلها .. جلست بجانبه .. رغبت في استدعائه ولربما تردّد لسانها في نطق اسمه .. غير أَنها .. فضَّلت أن يتوقف الأمر عند هذا الحد .. ألا تكون كالتيار يدور في دائرة مغلقة ..

فضَّلت .. البقاء على العهد .. والتمسُّك بالوعد والاكتفاء بالوداع ..

دخلت الصغيرة تستأذنها لأخذ منديلها فضمَّتها إلى صدرها بقوة تُفرغ في جسدها الضئيل شُحنات الحزن التي فاضت واستفاضت دون أدنى مقاومة منها ..

أن لا أتذكرك ..

وأن أنتظر اليوم الذي ألقاك فيه ..

لا تقلق ..

فذلك لن يكون ..

كما أنَّه لن يطول ..

إنها مسألة وقت ليس إلا ..

كما أنَّه .. أنا ..

فقط أنا ..

من عليه أن ينتظر .. فانتظرني ..